



معرفة السنن الإلهية وإمعان النظر فيها واستحضارها من أعظم أسباب حياة القلب وإيمانه وإجلاله للخالق المدبر سبحانه، فيه تلوح الحكمة ظاهرة في أمر تدبير الكون ونظامه، وأنه جار على تلك السنن المحكمة التي لا تتغير ولا تتبدل.

فأحداث التاريخ تعيد نفسها وإن تغير شيء من صورها وملامحها، فقراءتها واستقراؤها مما يسقي نبت المعرفة ويحيي نور البصيرة، ويقوى روح اليقين في وعد الله ووعيده وقدرته وانتقامه، فإن النفوس قد تستبطئ الفرج، وتيسّ حال الترقب والانتظار، فلا بد من ربط كل ما يستجد من حدث له تعلق بتلك السنن بسابقه، وإلحاد بعضها ببعض لتكون سلسلة متصلة متراقبة، ترسم منهاجاً واضحاً حال التعامل مع المستجدات، وتعطي تفاؤلاً وأملًا في استشراف المستقبل وما عسى أن يبذل من خلاله.

وأكثر شيء يثير حفيظة النفوس هو الظلم والقهر والاستعباد، ومعاشرة الذل والاستبداد، فتراها تغلي ولها أزيز كالمرجل من الظلم وسلطه وتمكنه، وتسأله عن مصيره ونهايته، وغالب الناس لا يبصر إلا ما أمامه، فإذا رأى ما هو عليه من السلطة والتمكן ظن أن لن يقدر عليه أحد، وأن يده فوق كل يد، ونسى سنة الله في الذين ظلموا، وغفل عن سنة الإملاء والاستدراج والتدافع، ونحن بحاجة للوقوف عندها مع ما نراه من تسلط الظالمين وانتشار الظلم في كل صوره وأنواعه، فيُدُّ الظلم مهما طالت فإن بترها قريب، وخطى الظلم وإن امتدت فبرتها ليس بالبعيد، ولما أخبر الله عن قوم لوط وما أنزل بهم من النكال عقب سبحانه بعد ذلك بقوله: **{وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعْدِ}** ، لئلا يظن أهل الظلم أنهم بمنأى عن ذلك، قال قتادة رحمه الله: والله ما أجار الله منها ظالماً بعد قوم لوط، فاتقوا الله وكونوا منه على حذر [1].

وأولى ما يجب الوقوف عنده في تصور سنة المدافعة ونصر الحق وسقوط الباطل وعروشه، هو أحوال الأنبياء - عليهم السلام - مع الظلمة من أقوامهم، فإنه من أكبر وسائل الثبات والصمود في وجه الباطل، لأنه يغرس عروق التفاؤل النفسي في زوال دولة الظلم مهما امتدت أروقتها وحصونها، ومهما بلغت في عتوها وطغيانها، لكنها مسألة وقت مقررون بالصبر والصدق والكافح، وبذل الأسباب المشروعة في سبيل ذلك، فنوح - عليه السلام - قام في دعوة قومه 950 سنة، ومع هذه القرون المتعاقبة الطويلة، وتماديهم في سخريتهم في مقابل كل الوسائل الرفيعة بدعوتهم، لم يأت الانتقام منهم إلا بعد ذلك، وموسى عليه السلام يدعو ويؤمن هارون عليه السلام بالهلاك على أعتى طاغية في الأرض، ومع ذا لا تأت الإجابة

والهلاك إلا بعد أربعين سنة كما قيل [2] ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يناديهم قومه العداء، ويمدون أيديهم بالأذى، ومع ذلك يمهلهم الله خمس عشرة سنة ثم يبيد صناديقهم بعدها في معركة بدر، والتاريخ حافل بتسلط الطالبين وخذلان الله لهم بعد أن بلغوا غاية القوة والسلطان، "فالكافر الفاجر وإن أعطي دولة فلا بد من زوالها بالكلية، وبقاء ذمه، ولسان السوء له في العالم، وهو يظهر سريعاً ويذوب سريعاً، كدولة الأسود العنسي، ومسيلة الكذاب، والحارث الدمشقي، وبابا الرومي، ونحوهم. وأما الأنبياء فإنهم يبتلون كثيراً ليمحصوا بالبلاء، فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه، ويظهر أمرهم شيئاً فشيئاً" [3]. وتأخير الهلاك للطالبين من حكمة الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين وليميز الخبيث من الطيب، والله "يملأ للظلم حتى إذا أخذه لم يفلته، {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ} [4]. وقد يكون الانتقام منهم مرجحاً في الآخرة أمام الأشهاد وبين نظر جميع العباد، ليكون أعظم لعذابهم وهوانهم، وفي قول الله عز وجل: {وَلَا تَحْسِنَ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} ، ما يخلع الفؤاد ويزلزل القلب من خوف هذا الوعيد. وفيه تعزية للمظلوم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما [5].

ومما يجب على الأمة أن تكون ناصرة للمظلوم أياً كان جنسه، وأن تكف يد الظلم أياً كانت سلطته، فـ(لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعن) [6] كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأن تناضل في سبيل ذلك موقفة بنصر الله وتأييده، ملقية سهام اليأس خلف ظهرها، وإذا تكاففت الجهود، ورفعت رايات الإيمان، ففي الأمة خير الوافي، والعطاء الكافي، لإحياء العدل ونصرته ومؤازرة أهله.

ورفض الظلم والأخذ على يد الظلم يجب على كل من كانت تحت يده ولاية على أحد أو سلطة عليه، فالرجل في بيته في ولاية، والمدير في وظيفته في ولاية، والكافيل مع مكفوله وعماليه في ولاية، بل حتى من كانت تحت يده بهائم وحيوانات فهوولي عليها، ومن الظلم إهمالها، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة الكسوف عند رؤيته النار أنه رأى فيها امرأة تعذب بسبب هرة حبسها حتى ماتت جوعاً، لا أطعمتها ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض [7].

فإذا كانت هذه المرأة نالت هذا العذاب بسبب حبس هرة عجماء، فكيف بمن يؤذي مسلماً ويحبس عنه رزقه وحقه؟! ولذا فأول خطوات التصحيح في رفع شعار الظلم أن يبدأ الإنسان بما تحت يده، وأن يعلق شعار نصرة المظلوم وحمل قضيته فيما يقدر عليه، و"إنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ولو استثار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتّقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى اكتنفت ظلمات الظلم الظالم، حيث لا يعني عنه ظلمه شيئاً" [8].

ودفع الظلم ورفعه من شيم الكرام والعقلاء، به المسلم الحامل لراية العدل وهي من صميم عقيدته، وقد حرمه الله جل وعلا على ذاته العلية وهو الخالق الرازق وجميعخلق عبيده، فكيف يجوز للمخلوق الضعيف المنعم عليه بعد هذا أن يستجيزه لنفسه بحال أو يؤول حقه في شيء منه! وأهل الشرك مع كفرهم تحالف الأكياس منهم في حلف الفضول لنصرة المظلوم واستنقاذ حقه من الظلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دُعيت له في الإسلام لأجيت، تحالفوا أن يردو الفضول على أهلها، وألا يغزو ظالم مظلوماً) [9]. فأين يقف ظالم يرفع الهوية بأنه مسلم من هؤلاء الكفرا الذين لم يكتفوا بنبذ الظلم بل تعاهدوا لنصرة المظلوم وأخذ حقه له؟!. وليس هذا نقصاً في هذا الدين العظيم بل في تطبيق بعض أهله له.

البيان

المصادر: